

التسامح الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

أ. وليد عبد الماجد كساب (*)

تمهيد :

التسامح قيمة إسلامية رفيعة ، دعا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان الرسول ﷺ مثلاً عملياً وتطبيقياً لهذا الخلق النبيل، حيث جاءت حياته مليئة بالمواقف المشهودة التي وقف التاريخ أمامها مكبراً ومسجلاً لها بحروف نورانية مشرقة.

وقد كان للتسامح أثره البالغ في الحضارة الإسلامية حين تعامل المسلمون به كواجب ديني تحتمه الشريعة؛ ففتحت كثير من البلاد بمساعدة أهلها أنفسهم؛ ودخل آخرون في دين الله أفواجاً جراء التسامح والمعاملة الحسنة الطيبة التي رأوها من المسلمين.

إن التاريخ ليحفل بكثير من المواقف التي تبرز جوهر الإسلام الناصع منذ عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم الخلافت الإسلامية المتعاقبة على حكم البلاد والعباد، وهذا ما حدا بالمنصفين من غير المسلمين أن يسجلوا شهاداتهم حول سماحة الإسلام مؤكدين على تلك الحقيقة التي تميز بها الإسلام فسعد بها العالم كثيراً.

لقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه دون النظر إلى عقيدته، قبل أن يعرف العالم ما يسمى " بالليبرالية " أو " منظمات حقوق الإنسان "،

(*) باحث بالأمانة العامة لرابطة الجامعات الإسلامية .

وقبل أن تدعو الولايات المتحدة الأمريكية إلى كتابها أو " الديمقراطية " التي يسهر الخلق جراها ويختصمون.

وليس غريباً أن ينشغل المسلمون في شتى بقاع المعمورة بالحديث عن التسامح الإسلامي وعلاقة الإسلام بالآخر، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي جاءت لتضع المسلمين وندهم - ودون غيرهم - في قفص الاتهام، ولم لا؟! فقد أصبح الإسلام هدفاً يسعى الغرب لوأده والقضاء عليه، وأضحى العدو التقليدي الأول بعد أن تهاوت الشيوعية فكانت نسياً منسياً.

ومما يؤسف له أن الهجوم السافر الذي يتعرض له المسلمون قد أفقدهم كثيراً من توازنهم؛ فالحكومات الإسلامية تعروها هزة عنيفة لمجرد ذكر كلمة " الجهاد " بل إن ذلك يعد سبباً كافياً لمعاقبة كل من يدعو إلى الجهاد بأية وسيلة، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، وكثير من علماء الدين يختزلون تعاليم الدين ومقاصد الشريعة في مفهوم التسامح وقبول الآخر، تحت مظلة " تطوير الخطاب الديني " متغافلين عن كثير من حقائق هذا الدين الخاتم، وأصبح " الخنوع " و " الهوان " هو اللغة الرسمية عند الحديث عن الإسلام، ففي الوقت الذي ينتهك فيه ستر المسلمين في العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من بلاد الإسلام؛ نجد من يحدثنا عن " التسامح " و " العفو " مع أن الإسلام قد أمر أهله بالأخذ بأسباب القوة والمنعة حتى يتمكنوا من الدفاع عن دينهم وعقيدتهم، ويستطيعوا أداء شعائريهم.

ومن عجب أن يشار إلى المسلمين بأصابع الاتهام دون غيرهم، وكأن الإرهاب وترويع الأمنيين صناعة إسلامية، وجزء لا ينفصل من

الدين الإسلامي، في الوقت الذي يغفل فيه جانب الإرهاب الغربي - الأمريكي قديماً وحديثاً، وعندما وقعت الأحداث الدامية الأخيرة في أسبانيا سارعت تلك القوى إلى إلصاقها بالمسلمين بالرغم من وجود العديد من الحركات الانفصالية الإرهابية التي تمثل بها الساحة في أسبانيا وعلى رأسها حركة " إيتا " الانفصالية .

إن الإعلام العالمي الذي يملك بنو صهيون ناصيته ويمتطون صهوة جواده يقرون بين الإسلام والقتل وسفك الدماء؛ أما الهندوس والصرب فليسوا إرهابيين؛ وأما مذابح البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا، والألوية الحمراء في إيطاليا، فهذا ليس إرهاباً.

لقد أثبتت الأحداث المتلاحقة التي ضربت الكثير من أرجاء العالم أن الإرهاب لغة عالمية لا تقتصر على قطر دون قطر، أو جماعة دون أخرى، كما لا يمكن حصرها في نطاق ضيق أو حيز محدود، لذا فمن الجور أن يقصر الإرهاب على المسلمين، وكل العالم يعاني من سكرات الإرهاب.

إن خروج ثلة من أهل الإسلام على روح الإسلام التي دعا إليها دينهم لا يعني أن الإسلام يدعو إلى الإرهاب؛ ولا يمكن أن يحسب هؤلاء على الدين، فلكل قاعدة شواذ، وإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يقال عن المسيحية واليهودية مثل ذلك، بالرغم من الأعمال الوحشية التي يقوم بها بعض المنتمين لهما، وهل يعيب المنهج سوء التطبيق؟! بالطبع لا!! إنما العيب فيمن يطبقون المنهج.

لقد أصبح لزاماً على المسلمين أن يعيدوا ترتيب أوراقهم في هذا الوقت الذي تدعو فيه كل أمة إلى كتابها؛ فالإسلام مستهدف من القوى

المعادية التي لا ترقب في مؤمن إلاً ولا دمة، وصدق الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله : " لقد مضت عليهم أربعة عشر قرناً، وهم يفترون على الإسلام الكذب ويضعون أمام دعااته السدود، ويعملون في رقاب أهله السيف إذا أسعفتهم القوة، وينسجون لهم الدسائس إذا أعجزهم الضعف ... فماذا جنوا بعد هذا كله ؟ لا الإسلام مات .. ولا قرآنه راد .. ولا أمتة هلكت".

وفي هذه الدراسة المتواضعة نتحدث عن التسامح كسمة من سمات الحضارة الإسلامية، وكقيمة من القيم العالية التي دعا إليها الإسلام، مسترشدين في ذلك بما أنزله المولى عز وجل في كتابه وبما أثار عن النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ثم بشهادات غير المسلمين حول سماحة ذلك الدين الحق.

والله ندعو أن يهدينا سواء السبيل

الفصل الأول

التسامح في المنظور القرآني

"السماحة" في اللغة :

السماحة في اللغة تعني التساهل والتيسير، فقد جاء في مختار الصحاح "السماح والسماحة: الجود، سمح به سماحاً وسماحة: ، وسمح له: أعطاه"^(١)، "وسمح" سموحاً وسماحاً وسماحة: جاد وأعطى، أو وافق على ما أريد منه ، وامرأة سمحة وقوم سمحاء ونساء سماح، وسامحه بكذا: أعطاه وتسامح وتسمح، وأصله الاتساع ومنه يقال: في الحق مسمح أى متسع ومندوحة عن الباطل .."^(٢).

التسامح بين اليهودية والمسيحية :

لم تكن الدعوة إلى التسامح بدءاً ابتدعه الإسلام حين جاء الرسول ﷺ بالرسالة الخاتمة، وإنما دعت إليه الرسالات السابقة، فقد وردت في التوراة نصوص كثيرة تحث اليهود على السماحة والتيسر مثل: "افتح يديك لأخيك المسلم والفقير في أرضك" وأيضاً ذلك التوجيه "لا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير".

ولكن اليهود لم يستمعوا لما جاءهم من الحق كعادتهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، بل تماردوا في غيهم فحرفوا التوراة،

(١) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح ص ٣٢٠ (يتصرف)، ط دار الحديث، ب. ت.

(٢) الفيومي: المصباح المنير ص ١٠٩ (يتصرف)، ط مكتبة لبنان.

ووضعوا بها من التعاليم الفاسدة الكثير والكثير فقالوا: "لا تُقرض أخاك برباً، أما الأجنبي فأقرضه رباً"^(٣).

أما عن المسيحية فقد ورد في الإنجيل: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"، وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه، لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير"^(٤).

وقد بينت المسيحية أجر التسامح ومثوبته مع الآخرين يقول المسيح عليه السلام، طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون^(٥)، وقد عُرف المسيح عليه السلام بسماحته التي فاقت كل الحدود البشرية.

الإيمان بالرسالات السابقة :

نادى القرآن الكريم المسلمين باحترام أصحاب الرسالات الأخرى والإيمان برسالتها، وجعل ذلك واجباً، بل وشرطاً من شروط الإيمان قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

قال ابن كثير "أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء

(٣) محمد عطية الإبراشي: عظمة الرسول ص: ٣٠، ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

(٤) محمد عطية الإبراشي: الإسلام دين الإنسانية، ط مكتبة مصر سنة ١٩٨١م.

(٥) المرجع السابق.

المتقدمين مجملًا، وقد نص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم^(٦).

ويقول القرطبي "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل"^(٧).

وفى موضع آخر يقول تعالى داعياً إلى الإيمان بكل الرسل دون أدنى تفرقه بينهم ﴿أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال ابن كثير "قال المؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ"^(٨).

يقول تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَنَا وَالْهَكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال مجاهد ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم عن أداء الجزية، وقوله تعالى ﴿وَقُولُوا آمَنَّا﴾ يعنى إذا

(٦) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/١٨٧)، دار التراث العربى للنشر والتوزيع.

(٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١/٦٣١)، ط دار الغد العربى.

(٨) ابن كثير: مرجع سابق (١/٣٤٢).

أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا تُقدّم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فاعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به مجملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً ولا مبدلاً ولا مؤولاً^(٩).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز "فما الإسلام بالنسبة إلى الرسائل السابقة إلا متمماً لها ومكملاً لها، فإذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجد أن الإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتفت به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء هكذا نرى نوحاً يقول لقومه ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ويعقوب يوصي بنيه ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وأبناء يعقوب، يجيبون أباهم ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وموسى يقول لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِنِ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنِ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريون يقولون لعيسى ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

وبالجملة نرى اسم الإسلام عاماً يدور في القرآن على السنة والأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر الإسلام، ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ويجعل منهم

(٩) ابن كثير: (٤١٦/٣).

جميعاً أمة واحدة لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة^(١٠) ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وحسب تعبير الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - فقد كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بinaan الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أنها أكملت البنيان، وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء، وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير حيث يقول: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"^(١١).

إنها إذن سياسة حكيمة لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة منها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض^(١٢).

(١٠) نقلاً عن الشيخ محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٦٧ -٦٨ بتصرف.

(١١) رواد البخارى فى كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

(١٢) راجع: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام مرجع سابق ص ٧٣ (بتصرف)، دار نيضة مصر - الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

حرية العقيدة في الإسلام

كفل الإسلام الحنيف حرية العقيدة لغير المسلمين، وأمنهم على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، وأعطاهم ما للمسلمين من حقوق، بل وأعفاهم من بعض الواجبات، وجاءت الآيات في هذا الشأن كثيرة، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. "أى لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته ودخل فيه على بينه" (١٣).

وليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود ومعاندة لإرادة رب الوجود ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة والمبرمة في القرآن في قاعدة حرية العقيدة "لا إكراه في الدين" ومن هنا رسم القرآن أسلوب

(١٣) ابن كثير: مرجع سابق (٣٠/١).

الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، على أن الإسلام لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية يكرم بها الإنسانية في شخص المسلمين^(١٤).

المجادلة بالتي هي أحسن :

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله وعباده المؤمنين بالإحسان في معاملة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن جرير "وهو ما أنزل عليه من الكتاب والسنة والموعظة بالحسنة، أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، "وجادلهم بالتي هي أحسن" أى من احتاج فيهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

حسن قتال المشركين :

(١٤) الشيخ محمد الغزالي : مرجع سابق ص ٧٦.

ومن سماحة القرآن دعوته إلى قتال المشركين دون الاعتداء على الحرمات بغير حق قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

ولقد رأينا المسلمين لم يحاربوا إلا لصدوا الاعتداء عليهم وعلى دولتهم وعقيدتهم، ووجدانهم لم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مسالمة الأعداء، ولم يتجاوزوا في حربهم حد الدفاع والترهيب إلى الانتقام الحاقق، كما فعل الغرب مع المسلمين في أسبانيا وفي البلقان، وكما يفعل الأمريكان والبريطانيون ومن على شاكلتهم بالمسلمين في العراق وغيره من بلاد الإسلام.

والمسلمون ينجحون إلى السلم إذا ما جنح لها الأعداء، ولا يخربون العمران، ولا يهدمون الكنائس، ولا يرغمون أحداً على الدخول في الدين، وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قد ذاع في مكة، وكان النبي ﷺ وأتباعه قلة لا يملكون من القوة ما يردون به عن أنفسهم الأذى والعدوان، ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية في كل عصر حتى في العصور التي ضعف فيها المسلمون.

كان ذلك عرضاً موجزاً لبعض التوجيهات القرآنية التي تدعو إلى التسامح مع أهل الكتاب والكفار، وبلا شك فهي بعض من كل؛ فالقرآن الكريم مليء بالتوجيهات الربانية التي تدعو إلى هذا الخلق القويم.

الفصل الثانی

صور من سماحة النبی ﷺ وخلفائه الراشدين

سماحة الإسلام مع أهله :

دعا الإسلام إلى السماحة كفضيلة من الفضائل التي شرعت للتيسير على الخلائق ورفع الحرج عنهم، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد نهى المولى عز وجل عن التشدد والرهابية التي تقيد النفس بقيود شديدة الوثاق، كما كانت المسيحية عند ظهور الإسلام، وعاب على أهل الكتاب تشددهم في العبادات فقال عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والتيسير على الناس ورفع الحرج عنهم أمر رئيس ومعتبر في الشريعة الإسلامية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عدة، منها قوله سبحانه: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن مظاهر السماحة في العبادات إسقاط فريضة الحج عن من لا يستطيع أداءها، يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقد أقر الرسول الكريم ﷺ دعوة القرآن للتسامح والتيسير في العبادات، لما لذلك من مردود إيجابي على الحياة الإنسانية بشتى جوانبها، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك

بقاياهم في الصوامع والديارات" ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي توجيه نبوي آخر يشير ﷺ إلى ضرورة التيسير في كل الأمور، يقول ﷺ: "إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة" (١٥).

وتبدو سماحة الإسلام بجلاء في الرخص التي أعطاهها الشارع سبحانه وتعالى للناس لرفع الحرج عنهم، والرخصة هي ما شرعه الله من الأحكام للتخفيف عن المكلفين في الأصول غير العادية، أي الأحكام الاستثنائية التي شرعت لوجود عذر شاق يمنع المكلف من الالتزام بالحكم الأصلي، ولا تطبق إلا في أحوال خاصة، كرخصة الفطر للمسافر والمريض في شهر رمضان، لما في الصوم مع السفر أو المرض من المشقة الشديدة والضيق الزائد، وأيضاً رخصة أكل الميتة أو شرب الخمر لمن أشرف على الهلاك من شدة الجوع أو العطش ولم يجد إلا ميتة أو الخمر للمحافظة على حياته.

إذن فقد قرر القرآن قاعدة مهمة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالأصل في التشريع هو التيسير وهو المقصد الأسمى للشريعة الإسلامية الغراء.

وكان الرسول ﷺ أعظم أسوة في سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة ، وكمال الخلق فكان بأخلاقه صلوات الله صاحب

(١٥) رواه البخاري.

دعوة عملية للتخلي بهذا الخلق، وبسائر فضائل الأخلاق ومحامد السلوك، ولم يكن صلوات الله عليه نكداً ولا صعباً ولا فظاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرفقة ولين الجانب ولطف الحديث، إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أى لست يا محمد فظاً فى أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرفقة واللطف والرحمة فى واقع حالك الخلقى، وليس من شأنك ولا من شأن أى داع يدعو إلى الله أن يكون فظاً أو غليظاً لأن هذين منفردان يجعلان الناس ينفضون من حول الداعى إلى الله^(١٦).

تسامحه مع غير المسلمين :

ومن كمال سماحته ﷺ تسامحه مع غير المسلمين استجابة لأمر الله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

يقول الدكتور دراز "قأنت تراء لا يكتفى منا بأن نجبر هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديم طريق الخير وكفى؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الرحمة - الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة، ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية التى لا تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم وحماية أشخاصهم

(١٦) الميدانى: الأخلاق الإسلامية وأسسها (٤٦٢/٢) دار القلم طه - ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" هل ترى أوسع أفقاً وأرحب صدرأ، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والنقاش السلمى بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها ولا تتحاكم إلى قوانينها" (١٧).

لقد بلغت السماحة برسول الله مبلغاً عظيماً فكما كان سمحاً فى حياته كان كذلك سمحاً فى حروبه مع أعدائه، فكانت هذه التعاليم والأوامر لأصحابه المحاربين لا تخريب ولا تدمير، ولا تعرض لغير المقاتلين من الأطفال والنساء والرهبان ولا تشويه ولا تمثيل بجثث القتلى.

أخرج مسلم عن سليمان بن بريرة عن أبيه رضى الله عنهما قال "كان رسول الله إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال "اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله" اغزوا ولا تغلوا (أى لا تأخذوا شيئاً من غنائم الحرب قبل قسمتها) ولا تغدروا ولا تمثلوا (لا تشوهوا القتيل بتقطيع بعض أجزائه على سبيل الانتقام والتشفى) ولا تقتلوا وليداً" (١٨).

هكذا كانت سماحة الرسول فى حروبه بل نجده يغضب غضباً لم يغضب مثله قط لقتل امرأة فى إحدى المعارك، فقد روى الإمام البخارى

(١٧) الشيخ محمد الغزالى مرجع سابق ص ٧٧.

(١٨) رواه مسلم فى كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها.

عن الليث عن نافع أن عبد الله رضى الله عنه أخبره "أن امرأة وجدت في بعض مغازى النبي مقتولة، فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان" (١٩).

وكذلك نهى رسول الله عن قتل المعاهد بغير جرم، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً" (٢٠).

وتتجلى سماحة النبي ﷺ في أعظم صورها في صلح الحديبية حين اشترطت قريش على النبي شروطاً قاسية، منها: من جاء من عند المسلمين إلى قريش لا ترده قريش، ومن جاء إلى المسلمين بغير إذن وليه رده المسلمون، وقبل النبي ﷺ شرطهم الجائر لحكمة رآها وغضب بعض الصحابة للشرط، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء أول امتحان للوفاء، إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهل فاراً من أذى قومه، وألح على الرسول في أن ينضم إلي المسلمين؛ لكن الرسول رده وفاء بعهده، فقال أبو جندل: إنهم سيعذبوننى؛ فقال له الرسول: "اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً" إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناكم على ذلك، وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم" (٢١).

(١٩) رواد البخارى كتاب الجهاد والسير باب قتل الصبيان في الحرب.

(٢٠) رواد البخارى كتاب الجزية - باب من قتل معاهداً بغير جرم.

(٢١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/٣٦٧) ت- طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.

وإن سماحة الرسول لتتجلى في أعظم صورها حتى في الموقف
المحتاج الذى تجنح فيه النفوس إلى الانتقام، فقد كانت الأمم تعامل
أسراها معاملة العدو البغيض، فتقتلهم أو تبيعهم أو تسترقهم، أما
الرسول فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة ذلك بأنه وزع الأسارى
السبعين على أصحابه وأمرهم أن يحسنوا إليهم، فكانوا يفضلونهم على
أنفسهم فى الطعام، وهكذا أرسى النبي ﷺ هذه القواعد الإنسانية فى
معاملة الأسرى وذلك قبل أن يعرف العالم هيئة الأمم ومجلس الأمن،
وغيرها.

وكذلك حين دخل النبي مكة يوم الفتح قادراً قال لقريش "ما
تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا
فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".
وصدق الله إذ يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً
غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى
الْأَمْرِ﴾ [آل عمران ١٥٩].

نماذج

من سماحة الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم)

كان أبو بكر الصديق - وهو الخليفة الأول للنبي ﷺ يقتفى أثر النبي ﷺ في تعامله مع غير المسلمين سواء من المشركين أم من أهل الكتاب، فيروى أنه ﷺ عندما أرسل الجيوش إلى الشام أمر عليهم يزيد بن أبي سفيان، وقال له: إني موصيك بعشر خلال: لا تقتل أرملة، ولا صبياً، ولا كبيراً هراماً ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه، ولا تغلل ولا تجبن^(٢٢).

وسار الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ على نفس الدرب الذي سار عليه أبو بكر الصديق في الإحسان إلى أهل الكتاب والمشركين تأسيماً بالنبي ﷺ، فقد روى عنه أنه أرسل رسالة إلى المجاهدين يوصيهم فيها بالضعفاء وعدم الاعتداء على حرمان الآخرين فقال "بسم الله، وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمتلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هراماً ولا أرملة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات"^(٢٣).

(٢٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء/ ٩٧.

(٢٣) أبو يوسف الخراج يتصرف.

وكان رضى الله عنه حريصاً على رعايا الإسلام على اختلاف عقائدهم ، فقد روى أنه رأى عجوزاً يسأل الناس، فعلم أنه يهودى، فقال له ما ألبأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأكرمه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وأمر فرفعت عنه الجزية وعن أمثاله وأوصى له براتب من بيت مال المسلمين.

وحدث أن ابن عمرو بن العاص - والى مصر - ضرب قبطياً، فاشتكاها القبطى لعمرو بن الخطاب فبعث عمر إلى عمرو وابنه فاستقدمهما من مصر إلى المدينة، وأمر القبطى أن يقتص من ابن عمرو فضربه كما ضربه، ولما أخذ القبطى بحقه قال له عمر: اضرب أباه على صلته، فتعجب القبطى من ذلك قائلاً: قد أخذت بحقى ممن ضربنى ، فقال عمر: بل اضربه. فوالله ما ضربك إلا بسلطان أبيه .. إنها عظمة الإسلام التى لا تدانيها عظمة، وعدله الذى لا يضارعه عدل.. فأى نظام هذا الذى يعطى أحد الرعية حقه فى القصاص من رئيس الدولة بهذا الشكل الذى رأيناه، فأى ديموقراطية تلك التى يتشدد بها الغرب، ويسهر الخلق جراها ويختصموا، وهل تقاس بهذه العظمة .. تلك إذن قسمة ضيزى.

كما كان رضى الله تعالى عنه حريصاً على أن يمارس أهل الكتاب طقوسهم فى أماكن عبادتهم، ولما دخل إلى كنيسة بيت المقدس

وحان موعد الصلاة خرج فصلى على السلم، فسئل عن ذلك؛ فقال:
خشيت أن أصلى داخلها فيتخذها المسلمون مسجداً بعد ذلك^(٢٤).

ولم يكن على بن أبى طالب ليحيد عن طريق رسول الله ﷺ ولا
عن طريق أصحابه - رضوان الله تعالى عليهم - فقد ورد أنه كتب إلى
الأشتر النخعي خطاباً يوصيه فيه بأهل أحد البلاد المفتوحة يقول فيه "إن
عقدت بينك وبينى عدو عقداً، أو ألبسته منك ذمة، فحط عبدك بالوفاء،
وأرح ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دونما أعطيت؛ فإنه ليس من
فرائض الله شئ الناس أشد اجتماعاً عليه مع تفرق أهوائهم من تعظيم
الوفاء بالعهود، فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك"^(٢٥).

وفى رسالة أخرى يبعث بها إلى واليه نجده - كرم الله وجهه -
يرسم له طريقة التعامل مع رعايا الدولة الإسلامية، فيحذره من إساءة
معاملتهم ، ويوصيه بأن يجمال فى طلب الخراج، وأن يراعى الجانب
الإنسانى الذى يتميز به الإسلام، يقول كرم الله وجهه : "إذا قدمت عليهم
فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون
عليها، ولا تضربن أقدامهم سوطاً واحداً فى درهم، ولا تقمه على رحلة
فى طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً (متاعاً) فى شئ من الخراج،
فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به، يأخذك
الله به دونى، وإن بلغنى عنك غير ذلك عزلتك، قال الوالى: إذن أرجع

(٢٤) يراجع كتاب الأستاذ نظمى لوقا: عمر بن الخطاب .. البطل والمثل والرجل، ط دار
الحرية، ١٩٨٦م ، و أيضاً كتاب الدكتور إدوارد غالى الذهبى: النموذج المصرى للوحدة
الوطنية، ط مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

(٢٥) د. جعفر عبد السلام: الإسلام وحقوق الإنسان، ص ١٩٧ .

إليك كما خرجت من عندك، فقال له الإمام على كرم الله تعالى وجهه:
وإن رجعت كما خرجت" (٢٦).

وأثر عنه كرم الله وجهه - أيضاً أنه قال عن هؤلاء "إنما بذلوا
الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودمأؤهم كدمائنا".

وحدث أن يهودياً شكاه لعمر بن الخطاب - وكان قاضياً في
عهد أبي بكر الصديق - فقال له عمر: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار
خصمك؛ ففعل وعلى وجهه علامات التأثر، فلما فصل في القضية قال
لعلى: أكرهت أن تساوى خصمك: قال: لا؛ لكنني تألمت لأنك ناديتني
بكنيتي؛ فلم تسوئني باليهودي؛ فخشيت أن يظن أن العدل قد ضاع بين
المسلمين.

حقاً إنها صور مشرقة من أخلاق هذا الدين الخاتم، ولا غرو في
ذلك، فالله سبحانه وتعالى قد ختم بها الرسالات وفي ذلك ذكرى لمن
كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٢٦) أبو يوسف: الخراج ص ١٤، ١٥ (بتصرف).

الفصل الثالث

شبهات حول سماحة الإسلام

الشبهة الأولى : انتشار الإسلام بحد السيف :

يرى القائلون بهذه الفرية أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن أتباعه عملوا على نشره دون النظر إلى الوسيلة ومدى تعارضها مع الإنسانية وحقوق الإنسان، عملاً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وفيما يلي نبين خطأ هذه الفرية، وكذب أصحابها، ونفضح نواياهم السيئة.

إن القرآن الكريم: ملئ بالتوجيهات الربانية التي تنادى بحرية العقيدة في الإسلام فيقول: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" [الكهف: ٢٩] وكذلك فإن القرآن وضع الأسس التي ينبغي أن تكون عليها الدعوة إلى الله يقول سبحانه: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" [النحل: ١٢٥] والنبى صلى الله عليه وسلم نجده في جميع حروبه يوصى جنوده بألا يقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا راهباً.

ولم يثبت أن النبى ﷺ أكره أحداً من المشركين على الدخول في الإسلام رغم تمكنه من المشركين - وخاصة يوم الفتح - ولو كان ذلك من شأنه لأعمل فيهم السيف، ولعل مجرد بقاء الكنائس والمعابد حتى الآن لدليل على تسامح الإسلام الذي ساد العالم شرقاً وغرباً، ولو أراد المسلمون استئصال اليهود أو النصارى ما كان ذلك عليهم بعسير.

تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" في كتابها "الله مختلف تماماً" "لقد لعب التسامح العربى دوراً حاسماً في انتشار الإسلام، وذلك

على العكس تماماً من الزعم القائل بأنه قد انتشر بالنار والسيف وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة ضد الإسلام^(٢٧).

أما توماس أرنولد فيقول "إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحول الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق"^(٢٨).

ثم يواصل قائلاً "إن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح، ومن المعروف أن جيوش المسلمين لم تذهب إلى جنوب آسيا أو غرب أفريقيا، إنما انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار والمتصوفة من المسلمين بعد أن رأى الناس عملياً سلوكهم وأخلاقهم وحسن معاملتهم، فأقبلوا على الإسلام دون أن يرغمهم أحد على الدخول فيه.

وحسب ما يرى الأستاذ العقاد فإن نظرة عابرة إلى البلاد الإسلامية لتكفي لتقرير وقائع التاريخ في هذه المسألة، فإن أكثر البلاد الإسلامية عدداً هي أقل البلاد غزوات إسلامية، وإن المسلمين لم يحاربوا قط في صدر الدعوة إلا مدافعين أو دافعين لمن يصدون الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوى السلطان، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركي

(٢٧) نقلاً عن د. محمود حمدي زقزوق الإسلام في مواجهة حملات التشكيك، ط

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م ص ٤٥، ٤٦ ..

(٢٨) د. محمد إبراهيم الجيوشي التسامح في الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،

١٩٩٦م، ص ٥٧ .

الجزيرة العربية كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم .. وقبل غزو فارس بزمان طويل كان كسرى يبعث بعوثه في طلب صاحب الدعوة الإسلامية حياً أو ميتاً، لأنه خاطبه داعياً إلى الإسلام.

إن من لا يفهمون الإسلام فهماً شمولياً صحيحاً يحسبون أن الإسلام يوجب القتال الدائم على المسلم كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة، ويعدون هذه الفريضة بدعة بين الفرائض الدينية أو بين الفرائض الإنسانية التي قررتها دساتير الأخلاق في أمور العقائد على الإجمال، وحقيقة الأمر أن الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه فريضة الجياد - فضلاً على الأساس الديني - يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم.

فماذا تقول شريعة الأخلاق في الواجب على الإنسان نحو عرضه؟ أن الإسلام لا يقول شيئاً غير الذي يقوله هداة الوطنية والشرف حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد في سبيل وطنه وكرامته وعرضه، ويعيبون عليه أن سالم من يقاتلونه في سبيل حريته وحرية بلاده، وليس بالدين الصالح للإيمان به دين ينزل بحرية الضمير عن مرتبة الحرية في الوطن والمعاش^(٢٩).

الشبهة الثانية: لقد جاء المسلمون كمستعمرين :

يروج بعض الحاقدين على الإسلام أقوالاً لا يصدقها عقل ولا يؤيدها نقل وهم يحاربونه بكل ما أوتوا من قوة.

(٢٩) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١١٠ (بتصرف) ط دار الرشاد الحديثة، ب.ت.

يقولون بأن فتح البلاد يعتبر استعماراً لها، وذلك أمر عجيب، فالاستعمار كما هو معروف على مر التاريخ هو استغلال واستنزاف لثروات البلد المحتل دون النظر إلى أهل هذه البلاد أو إلى مدى حاجتهم إلى تلك الثروات، وهذا ما فعلته بريطانيا في مصر، وفرنسا في الجزائر، وإيطاليا في ليبيا، وهذا لم يكن من شأن الفتوحات الإسلامية.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين الاحتلال البريطاني لمصر والفتح الإسلامي للأندلس يتبين لنا الفرق واضحاً جلياً بينهما، فقد عمل الاحتلال البريطاني منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر على استنزاف ثرواتها، بينما جاء الفتح الإسلامي إلى أسبانيا فجعلها جنة فيحاء، فكانت أول بلد أوروبي - وربما في العالم - تضاء شوارعها ليلاً في الوقت الذي كانت أوروبا تعج بالخرافات الكنسية، أما من الناحية الشرعية فقد رفض الإسلام الجهاد بهدف الحصول على الغنائم فيقول تعالى: ﴿ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقد سئل النبي ﷺ عن رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا - أي يبتغي الحصول على الغنائم - فقال "لا أجر له" وكرر ذلك ثلاث مرات.

وكذلك فإن القول بأن الفتوحات الإسلامية كانت توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادي يعد عملية إسقاط لما فعله الاستعمار الغربي بالبلاد الإسلامية في العصر الحديث على فتوحات المسلمين في السابق وبينهما بون شاسع!! ولذلك نجد في التاريخ والسير أن خالد بن الوليد عقد معاهدة مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة سجل فيها نصاً يقول: "فإن منعناكم (أي قمنا بحمايتكم) قلنا الجزية وإلا فلا" وقد

حدث بالفعل أن قام المسلمون برد الجزية إلى أهل المدن المفتوحة في الشام حينما شعروا أنهم غير قادرين على توفير الحماية اللازمة لهذه المدن وكان ذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حينما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لحرب المسلمين، وشغل المسلمون حينذاك بالمعركة مع جيش الروم، وكتب القائد العربي لأهل هذه المدن "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"^(٣٠)، إذن فلا داعى لما يقول المغرضون الذين لا يبرحون يهاجمون الإسلام في ميادينه وبين أهله.

الشبهة الثالثة : حد الردة انتهاك العقيدة :

المرتد في الشرع : هو الراجع عن دين الإسلام، وقد تكون بالألفاظ أو الأفعال أو الاعتقادات، فتكون باللفظ حين يتكلم المسلم بكلمة الكفر كسب الله ورسوله، وبالأفعال بأن يأتي المسلم عملاً يدل على استخفافه بالدين، وقد يكون بالاعتقاد بأن يعتقد المسلم أموراً باطلة متناقضة لما عرف من الدين بالضرورة مثل إنكار وجود الله أو اليوم الآخر، وأن محمداً ليس خاتم النبيين.

ويشترط لوقوع الردة أن يكون المرتد عاقلاً مختاراً، فلا تعتبر ردة الصبي والمجنون ولا السكران الذى زال عقله بالسكر ولا المكره إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان.

(٣٠) الإسلام في مواجهة حملات التشكيك (مرجع سابق) ص ٤٩ .

وعقوبة المرتد القتل لقوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه" وهذا الحكم يشمل الرجل والمرأة عند الجمهور، أما الحنفية فيرون أن المرتدة لا تقتل بل تحبس حتى تتوب، وعن إمهال المرتد قبل قتله قال الجمهور بوجوبه، ويعرض الإسلام عليه لعله يرجع عن رده، فإن أبى قُتل، وقال الحنفية الإمهال ليس واجباً، بل مستحباً^(٣١).

إن الذين يعيبون على الإسلام تطبيقه لحد الردة قد تغافلوا حقيقة مهمة جداً، وهى أن جريمة "الخيانة الكبرى" توجب الإعدام فى الكثير من دول العالم، هذا عن خيانة القواعد والقوانين الوضعية، فما بال هؤلاء لا ينطقون عند تسفيه الشرائع الإلهية.

إن قتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارد فقط ، ولكن لإثارته الفتنة والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية، أما إذا اردت بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم، فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء فانه وحده هو المطلع على ما تخفى الصدور^(٣٢).

(٣١) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، الرسالة ١٩٨٧، ص ٢٨٩ .

(٣٢) الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (مرجع سابق)، ص ١٣٠ .

الفصل الرابع

من شهادات غير المسلمين

والآن نود - بشئ من الإيجاز - أن نورد شهادات غير المسلمين حول سماحة هذا الدين الحنيف ، وهى بلا شك أدلة دامغة واضحة لا تحتمل التأويل والتشكيك، وإنما هى بمثابة براهين جلية، لأنها ما نبعت من لدن المسلمين أنفسهم، ولكن قالها غيرهم ممن أعجبوا بهذا الدين وعظمته وسماحته على مر العصور والقرون.

بعد سنوات قضائها القائد الفرنسى الفذ "نابليون بوناپرت" فى محاولة يائسة للهيمنة على مقاليد الأمور فى كثير من بقاع الأرض، ومنها بعض الدول الإسلامية، جال بخاطرة تساؤل أرقه وأجهده : ما هو السبب الفعال فى الانتشار السريع للدين الإسلامى، يقول: "إننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب، فلا بد أن يكون من وراء انتشار الإسلام سر لا نعلمه، وأسباب مجهولة مكنته من الانتصار السريع على المسيحية، وربما كانت العلة المجهولة أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة وحماسة غالبة، وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل" (٣٢).

ولا شك أن بوناپرت - وهو القائد الذى أفرط المؤرخون والساسة فى وصف ذكائه ودهائه، قد غفل - وربما تغافل - عن حقيقة كبرى، وهى أن لسماحة الإسلام دوراً كبيراً فى انتشاره بين الشعوب

(٣٢) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، ص ٨٥، (بتصرف).

على اختلاف ثقافتها ومشاربها، والشهادات حول هذا الموضوع كثيرة بحيث يضيق المقام عن ذكرها، لذا سنكتفى بذكر نزر يسير منها وكل هذه الشهادات جاءت من الغرب وإليه ترجع، فتلك بضاعتهم ردت إليهم.

ويرى " غوستاف لوبون " أن أهم ما تميز به المسلمون الفاتحون هو دماثة خلقهم وتسامحهم الذي فاق كل الحدود، وكان لذلك كبير الأثر على البلاد التي فتحوها، فيقول: "إن اظهر ما يتصف به الشرقيون - المسلمون - هو أدبهم الجم وحلمهم الكبير وتسامحهم، ووقارهم في جميع الأحوال، وقد أورثهم إيمانهم طمأنينة روحية، في حين تورثنا أمانينا احتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائماً يبعدنا عن تلك السعادة"^(٣٤).

أما " روبرتسون " فيرى أن المسلمين تفردوا دون غيرهم بحرصهم الكبير على دينهم وتوصيله لكل من يحيا على ظهر الأرض في إطار من السماحة والمشروعية، يقول: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، وأنهم مع امتشاق الحسام تركوا لمن لا يرغب حرية التمسك بدينه"^(٣٥).

كما شهد البطريق "عيشوبايه" بأن "العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون: "إنهم ليسوا أعداء

(٣٤) مجلة منار الإسلام، الإمارات - جمادى الأولى - سنة ١٤١٨م، ص ١١٧ وما

بعدها.

(٣٥) المرجع السابق.

لنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويقرون قدسنا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"^(٣٦).

ويقرر الإنجليزي السير "توماس أرنولد" في كتابه القيم " الدعوة إلى الإسلام " حقيقة واضحة وهى أن القبائل المسيحية قد اعتنقت الإسلام عن رغبة جامحة لا عن إرغام وإكراه فيقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقت عن اختيار وإرادة حرة، ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين الشاهد على هذا التسامح"^(٣٧).

ثم يبرهن على ذلك بقوله: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحى، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند .. دين الإسلام من أسبانيا، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهبا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا، أو بتلك السهولة التى ظل اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة.

ومن وجهة نظره الخاصة يرى "توماس أرنولد" أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل "واضح على ما يقوله: "ولهذا فإن مجرد بقاء

(٣٦) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (مرجع سابق) ص ٤١ بتصرف.

(٣٧) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، ص ٨٣، ط ١٩٩٧م.

الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة المسلمين في الدول الإسلامية بوجه عام من تسامح^(٣٨).

أما "زيغريد هونكه" فقد نقلت في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" مقولة لأحد ملوك الفرس الذين بهرتهم سماحة هذا الدين، ويسمى كيروس" يقول: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين يدمرون البلاد ويقتلون العباد وينشرون الفساد^(٣٩).

ويرى "القس ميشو" أن القرآن له الأثر الكبير في أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفي نفس الوقت أوجب عليهم التسامح في كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم السماحة من المسلمين فيقول: "إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية وحرّم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

ثم يواصل قائلاً: " .. ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أى معتقد عليهم إكراهاً^(٤٠).

وقد قارن "ميشو" في كتابه "سماحة دينية في الشرق" - بين الفتح الإسلامي للقدس في عهد عمر والاستيلاء المسيحي على القدس، كما عاب على المسيحيين أنهم لم يخلعوا عليهم بروح التسامح فقال: "لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً؛

(٣٨) منار الإسلام - شعبان ١٤١٨هـ - ص ١١٧.

(٣٩) منار الإسلام - جمادى الأولى سنة ١٤١٨هـ. ص ١١٧ وما بعدها.

(٤٠) المرجع السابق.

ولكن لما استولى المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود إحراقاً .. ولقد أبقت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عند الغلظة، وحسن مسامرة ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك ، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت إمارات ضعف عند الأوروبيين، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها"^(٤١).

وكان للتسامح الإسلامى فى البلدان المفتوحة أثر كبير فى انطباعات الشعوب المجاورة لهذه البلاد، حتى إن أغلبها تمتنت الفتح الإسلامى، ووجدت فيه المبدأ والملاذ، يقول "ترومان بينزا": "لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحى فى عشية الكارثة ينفرون من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، ومازال الناس يرددون دون الكلمة المشهورة التى نطق بها رئيس دينى فى بزنطية فى ذلك الحين وهى: "إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية"^(٤٢).

وقد شهدت أوروبا نفسها صوراً مشرقة من تسامح المسلمين فتعامل المسلمون - كدأبهم - مع أهل الأندلس معاملة طيبة ، وكفلوا لهم حرية العقيدة، بل قلدهم الوظائف الرفيعة، والمناصب العليا.

(٤١) مختارات من سماحة الإسلام ، د. أحمد الحوفى (بتصرف) ص ٨٣ وما بعدها.

(٤٢) هذا ما نقله د. أحمد الحوفى عن كتاب "الأمبراطورية البزنطية" لفورمان بيتز.

يقول الكونت "هنرى كاسترى": فى كتابه "الإسلام": وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمساً، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى؛ بل بقيت روما نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية.

ثم ينقل عن "دوزى" قوله: "لقد أبقي المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير.

"وكم من أندلسي بقى على دينه، ولكن أعجبه حلاوة التمدن العربى، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة، والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها، لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود لجأوا إلى خلفاء الأندلس فى قرطبة؛ لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين، ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا أعملوا السيف فى يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأ فى الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين" (٤٣).

يقول "ميخائيل الأكبر" بطريق أنطاكية بعد أن استعرض سلسلة الاضطهادات التى وقعت على أيدي هرقل ورجاله: "وهذا هو السبب فى

(٤٣) د. أحمد الحوفى: مرجع سابق ص ٨٣، وما بعدها بتصرف.

أن إله الانقام الذى تفرد بالقوة والجبروت والذى يدل دوله البشر كما يشاء - فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضع - لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (المسلمين) من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.

".. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها، ومع ذلك لم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام" (٤٤).

يقول " أدوالدوبلى" أحد رهبان القديس "ديس" القسيس الخاص للويس السابع فى الحرب الصليبية الثانية ١١٤٨م - يقول عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي وانضمامهم إلى جيوش المسلمين: "لقد جفوا إخوانهم فى الدين، كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يعنى المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقيفروا إلى صفوف الأتراك .. آه ... إنها لرحمة أقسى من الغدر، لقد منحروهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموه لهم من خدمات" (٤٥).

أما شهادة الدكتور " فيليب حتى" فهى شهادة من نوع خاص لسببين أولهما: أنه مسيحى وثانيهما: أنه عربى تجرى فى عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه فى إطار من العدل والتسامح، فيعرف الإسلام بأنه "حضارة

(٤٤) نقلاً عن الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى مرجع سابق ص ٤٧ (بتصرف)

(٤٥) المرجع السابق.

عامّة شاملة تنظم كل من يعيش تحت سماءها في حرية وصفاء ، ويعيش
غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة تربطهم روابط المحبة
والأخوة^(٤٦).

وبعد ...

فهذا .. نزر يسير من شهادات غير المسلمين من وغيرهم من
الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح، بعظمته التي لا نضاهيها
عظمة، وبإنسانيته التي ليس لها حدود .. فلم يستطع هؤلاء أن يكتفوا
بشهادتهم أو أن يسلبوه حقه .. فأنطقهم الله الذي أنطق كل شيء.
ومعذرة إن كنت أكثر من الاقتباسات أو أطلت في بعضها.
فتلك أقوالهم ... وهذه بضاعتهم

(٤٦) منار الإسلام شعبان ١٤١٨هـ (مرجع سابق) ص ١١٧، وما بعدها.